ISSN: 1812-0512 (Print) 2790-346X (online)

Wasit Journal for Human Sciences

Available online at: https://wjfh.uowasit.edu.iq

Center and margin in Andalusian poetry (447-897 AH)

1. Haider Yaqoub Sabir
2. Raad Nasser Mayoud Al-Waili

University Wasit/ College of Education for Humanities

*** Corresponding Author Email:**

1.ha752045@gmail.com

2.ralwaili@uowasit.edu.iq

Keywords:
center, margin, poetry, poets, power elite, ignorance, submission.

Article history:

Received: 2024-08-08

Accepted: 2024-08-30

Available online:2024-10-01

A B S T R A C T

The center represents the major powers that dominate society, and it can be called the elite class. In fact, the center and the margin constitute a striking presence in Andalusian poetic discourse, as it is due to the circumstances in which it was produced, and the mobilization goals that were intended for it, as it is the quiet media directed in the service of the authoritarian elites, until it became a door of its centrality, in which it tried to spread intellectual deception to the recipient of the discourse, such as showing the uniqueness of the class elites in characteristics, or in lineages, to form a superior center, which requires that the other become a margin.

© 2024 wjfh.Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol20.Iss4.730

المركز والهامش في الشعر الأندلسي
(447-897هـ)

م.م. حيدر يعكوب صبير
جامعة واسط/ كليّة التّربية للعلوم الإنسانيّة

أ.د. رعد ناصر مايود الوائلي
جامعة واسط/ كليّة التّربية للعلوم الإنسانيّة

الملخص

يمثِّل المركزُ القوى الكبرى, المهيمنة على المجتمع, ويمكن أن يُطلقَ عليها الفئة النَّخبويَّة, وفي الحقيقة يُشكّل –المركزُ والهامش– حضورًا لافتًا في الخطاب الشِّعري الأندلسي, مردّه إلى الظّروف التي أُنتِجَ من خلالها, وما أُريدَ له من أهداف تعبويّة, بوصفه الإعلام الهادئ المُسَيَّر في خدمة النُّخب السّلطويَّة, حتّى أضحى بابًا مِن أبواب مركزيَّتها, حاول فيها السّعي على إشاعة التّضليل الفكري لمتلقي الخطاب, كإظهار التفرُّد للنخب الفئويّة في الصّفات, أو في الأنساب, ليشكّلوا مركزًا متعاليًا, يقضي أن يغدو الآخر هامشًا.

الكلمات المفتاحية: المركز, الهامش, الشّعر, الشّعراء,النّخبة السّلطوية, التّجهيل, الخضوع

المقدمة

إنَّ السّلطة بحسب فوكو, ليست سلطة واحدة, بل هي مجموع من السُّلطات المختلفة, والمتوغلة بصورة كاملة في الجسد الاجتماعي, ولذلك فهي حاضرة في كلِّ مكان, والأمر ذاته منطبق على السُّلطة التي يفرزها الخطاب, من سلطة يقع الآخرون تحت تأثيرها دونما شعور, فالخطاب "أي منطوقٍ أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع, وفي نية الرّاوي التأثير على المستمع بطريقة ما"(الغانمس سعيد, 1993م, 48), ويكون ذلك ضمن مستويات مختلفة, ولمآرب متباينة, سيّما إذا ما اقترنت بدوافع سلطويَّة, يسعى من خلالها المتسلّطون إبراز مركزيّتهم, وإقصاء الآخر, وبهذا الشّكل يخضع إنتاج الخطاب إلى ما يريده النّخبة, "كونه يندرج تحت سند صناعة الخطاب, فهو وسيلة لإظهار المركزيّة"(البلح دليلة, 2021م, 300), وإن كانت سلطتها متستِّرة, إذ على مستويات الخطابات ذات المحتوى السِّياسي مثلًا, يمكن أن يُفهم, أنَّ ما تسعى إليه الخطابات, أمورًا تتعلَّق بمراحل قد تكون تصاعديَّة, تبدأ بالإقناع حتّى تصلَ إلى استعمال العنف, لتضمن الخضوع والانصياع التَّام(فوكو,2007, 63).

إنَّ الخطاب السَّلطوي يحتاج إلى بنية هرميَّة, للوصول إلى فهم معناه, إذ لكلِّ خطاب تأثيره الخاص على العلاقات والتَّعاملات الإنسانيَّة(شليغر, 1987م, 1-2), وفي واقع الأمر, تسعى السُّلطة دائمًا لفرض إرادتها على الآخر, فبدلًا من المواجهة المباشرة, تميل إلى إخضاعه بشتَّى الطُّرق الإقناعيَّة, مستعملة الخطاب كوسيلة لها, وغالبًا ما يميل الآخر, إلى الاستسلام والتَّراخي أو المعارضة, لذلك يشكِّل الأول مركزًا, والآخر

هامشًا, ومن هنا تبدأ بالظهور عند الطَّرف الآخر المهمَّش, حالات سلبيَّة كثيرة تصل للتَّذلّل للنخبة, والتَّقرّب والتَّكسّب وغيرها.

ويظلُّ المصطلحان غامضين, ومن المصطلحات الزِئبقيَّة المتلونة بأكثر من لون, إذ يتوزَّعان على شبكات مختلفة وواسعة, سياسيَّة, واجتماعيّة, واقتصاديّة, ونفسيّة, ولكونهما محاطين بكلّ هذا الغموض, لا يمكن وضع تعريف مانع جامع لهما, إذ تكمن أهميتهما بذلك الغموض, وتحملّهما لمختلف المجالات والشّبكات والتّخصّصات(سمير خليل, 2014م, 279).

وفي الحقيقة يُعَدُّ هذان المصطلحان, أكثر تداولًا في الدِّراسات الثَّقافيَّة, ومن أبرز المحاور التي يتبنَّاها النَّقد الثَّقافي(حفناوي, 2007م, 109), إذ يسعى لتفكيك ما يحمله المصطلحان من أنساق, وما يتفرّع عنهما من مصاديقَ سياسيَّة, قائمة على الصِّراع, بين السّلطة ومن يعارضها, أو مصاديق اجتماعيَّة, يصل فيها الصِّراع ذروته, بين الطبقات الاجتماعيَّة المتفاوتة, أو بين صراعات لانتماءات قبليَّة, أو دينيَّة, فمحاور المصطلحين مختلفة ومتباينة وواسعة.

أولًا: المصطلحان في اللّغة:

المركز لغة: جاء في لسان العرب: "مِن رَكَزَ: الرَّكز, غُرْزُكَ شيئًا منتصبًا, كالرُّمح ونحوه, غَرَزَهُ في الأرض, والمراكز منابت الأسنان, ومركز الدَّائرة وسطها"(ابن منظور, 1985م,355). وفي القاموس المحيط, "رَكَزَ الرُّمح يركزُهُ ... والرِّكز الصوت الخفي والحس, والرَّجل العالم السَّخي الكريم"(العرقسوسي نعيم,2005م, 461). يتَّضح ممَّا سبق, أنَّ المركز, جوهر الشَّيء, إذ قد شُبِّه بالرُّمح المرتكز في الأرض, الذي يُراد منه الثَّبات والاستقرار, ولهذا صار المركز يمثِّل "طبقة الأسياد التي هيمنت على الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة"(البلح دليلة, 2012م, 300), وصار يعني سياسيًا, "مكان وجود السُّلطة"(المصدر نفسه, 300).

أمَّا المهمَّش, فقد جاء في المعجم الوسيط "همَّش الكاتب, علَّق على هامشه, وتهامش القوم, كثروا بمكان واحد, فأقبلوا وأدبروا فيه, واختلطوا بعضهم ببعض, والهامش, حاشية الكتاب, وفلان يعيش على الهامش, لم يدخل زحمة النَّاس"(نخبة, 1972م, 1046).

وعلى هذا فالهامش يعني, ما هو غير أساسي, المتَّصف بالحركة الزَّائدة, التي لا فائدة منها, إذ هو نقيض المركز, الموصوف بالاستقرار والثَّبات.

يمكن من كلِّ ما سبق أن نخلص إلى الآتي, إنَّ المركز يمثِّل القوى الكبرى, المهيمنة على المجتمع, ويمكن أن يُطلق عليها الفئة النَّخبويَّة, "وهي مجموعة أو فئة قليلة من النَّاس, يحتلُّون مركزًا سياسيًّا, أو اجتماعيًا مرموقًا, فالمصطلح تعبير عن الامتياز والتَّفوق"(الكيالي عبد, 1985م,561), وبمقدار هذه النُّخبة أو الفئة, التَّحكُّم وإخضاع الجماهير؛ لأنَّها تمتلك وتنفرد بالسُّلطة, بما يضمن سيادتها وأمنها. وتسعى مثل هذه النُّخب السَّلطويَّة, من خلال أدواتها, لفرض ما تريد على الآخر؛ لتكون في موقع السِّيادة المطلقة, التي يفقد من خلالها

الآخر الإحساس بعدم الجدوى من المقاومة, فيخضع للمعايير التي وضعتها له النُّخبة, ليشكّلوا الهامش المغلوب على أمره(الجوهري محمد, 2007م,70). ويُشكّل هذا حضورًا لافتًا في الخطاب الشِّعريّ الأندلسيّ, مردّه إلى الظّروف التي أُنتج من خلالها, وما أُريد له من أهداف تعبويّة, بوصفه الإعلام الهادئ المُسَيَّر في خدمة النُّخب السّلطويّة, حتّى صار الخطاب الشِّعري, بابًا مِن أبواب مركزيَّتهم, من خلال مجموعة من الوسائل التي تمَّ طرقها, حاول فيها العمل على إشاعة التّضليل الفكري لمتلقي الخطاب, كإظهار التفرُّد للنُّخبة في الصّفات, أو في الأنساب, ليشكّلوا مركزًا متعاليًا, وهذا يقضي أن يغدو الآخر هامشًا, وكما سيتّضح في تضاعيف هذا الفصل.

تفتَّحت من خلال أغراض الشّعر المختلفة, أبوابٌ تعمل على تفخيم النُّخبة السّلطويَّة, إذ شكَّلت مركزًا مؤثرًا وقويًا للتضليل والتّلاعب بمتلقي الخطاب, والتَّأثير على إدراكاته الفكريّة, إذ إنَّ الشِّعر "هو فعل مراوغة عن الواقع وانزياح عنه... وهذه السِّحريَّة في إخفاء الواقع والقدرة على مراوغته هي خاصيَّة به, منذ كان الشِّعر طفلًا"(الخباز محمد, 2009م, 31), لهذا صنع الأنويَّة السَّلطويَّة وارد فيه وبكثرة, إذ يحرّكها الشَّاعر بما يريد, ويوشّحها بما يشاء, من صفات وقيم, من خلال أنساق يجعلها في طليعة كلِّ شيء, وتؤدِّي إلى إقصاء الآخرين, فيجعل من الذّات السّلطويّة منمازة بمجموعة من الصّفات التي يفتقر لها الآخر, وهذا ما تسعى له أي سلطة, إذ "إنَّ غاية السُّلطة هي البحث عن آليات وأشخاص يضمنون معها استمرار سياستها وتوجّهاتها, وفي الوقت نفسه الظهور بصورة مشروعة بعيدة عن العنف, وذلك بتوظيف وسطاء, لهم القدرة على فهم المشاريع وتطبيقاتها دون أن تصدَّها أي معارضة"(شاقور غزالة, 2012م, 133), لذلك كان الأثر الكبير في هذا المجال للشعراء, وبجملة من الأساليب الشِّعريَّة التي تصبُّ في مصلحة النُّخبة, فقد استطاع –الشُّعراء– من خلال زخارف القول, المرتبطة بأبعاد متباينة ومختلفة, توزّعت بين تكسُّبٍ وتملّقٍ تارة, وبين السَّعي لكسب ودّ المتسلّطين, تارة أخرى, لتحيق أهداف النُّخبة, من خلال إظهار فضائلها, وتفخيمها وتفضيلها على الآخر, فكان الدّفع باتجاه النّخب السّلطوية وإعلاء أمرها وتعظيمها, وتجاوز ما عداها, فهي "المجموع الكلّي لكلِّ ما يستطيع الإنسان أن يدَّعي أنَّه له, جسده, سماته, قدراته, ممتلكاته, أصدقاؤه, أعداؤه, مهنته, هوايته, وكثير غير ذلك"(ذورة قدور, 2023م, 17).

ثانيًا: السّلطويّة:

ظهر مفهوم نظريّة السّلطة حديثًا, وارتبط بشكل رئيس مع توجّهات الإيطالي ميكافللي, والذي يُعَدُّ المرجع الأساس لنظريّة السّلطة, إذ دعا إلى فكرة أحقيّة السّلطويين في تحمّل الحكم دون غيرهم, حيث لا يتمكّن الشّعب من تحمّل المسؤوليّة كاملة, لذا وجب أن يتصدّر المتسلّطون مركزيًا, ويتأخر كلٌّ من عداهم, ليقعوا تحت خط الخضوع لهم(الربيعي ضياء, 2021م, 6), وبهذه النّظرة الميكافيلليّة, تركّزت النّظريّة السّلطويَّة على ركائزَ رئيسة, كلّها تنتهي بالانفراد بالسّلطة, وخضوع الآخرين التّام والمطلق, مستندة على جوانب غاية في الخطورة,

إذ إنّها تمسّ في أعمها الجانب العَقدي, ومنها: الحق الإلهي, الدّين مصدر التفويض الإلهي, حكم الملوك, ومن هنا أمكن التّعريف بهذه النّظريّة, والتي تعني في أدقِ تفاصيلها, حصر السّلطة بيد الفرد الواحد, وعدم مقدرة الشّعب على نيلها, أو تسنّمها, أو المشاركة فيها, فلا يجوز لأيِّ فرد على وفق هذه النّظريّة غير الفرد السّلطوي تسنّمها, لذلك غدا المجتمع ممزّقًا على طبقات متفاوتة, ومنها بقيت تُعاني منها أوروبا إبان القرن السّادس عشر, فقد تمثّلت بالحكم الملكي المطلق, المفوّض من قبل الكنيسة(عامر حمزة, 2022م, 20).

يقوم الفكر في المنظومة السّلطويّة, على استعمال الجوانب الدّعائيّة, كمبدأ أساسي ليصبّ في خدمتها, لتحقيق أهدافها الاستبداديّة, والتي مفادها التّسليم التّام للفرد السّلطوي, والانقياد لطاعته والولاء له, فهو الضّامن الوحيد لمصلحة العباد والبلاد, ويتّصف الاعتقاد بالمركزيّة السّلطويّة بالتّمسّك بالسّلطة, حتّى يصل إلى استعمال القمع السّياسي, من خلال الإيمان المطلق بعدم محدوديّتها زمنيًا(الظليفي هاني, 2019م,158).

وتتّصفُ الذّاتُ السَّلطويَّةُ, بالانتفاخ الأنوي, وطغيان المركزيَّة, وتعمد على إقصاء الآخر, وإخضاعه وتهميشه, وتُمارس تأثيراتها المختلفة على العقل الجمعي, من خلال تضليل إدراكاته فكريًا, بمجموعة من الأفكار الممنهجة, إذ إنَّ "اتّزان السَّلطويَّة يعتمد في الدَّرجة الأولى على الأكاذيب"(المصدر نفسه, 160), لهذا تجعل من ذاتها السَّلطويَّة, قيادة عليا مُفترَضة الطّاعة, ولا يمكن المساس بها, أو التّمرد عليها؛ بسبب ما تفرضه من مجموعة الإجراءات التي تجعل المجتمع خاضعًا لما تريده.

وكذلك تنماز الذّات السّلطويَّة, بطريقة تفكيرها الأحادي, الذي يجعل من سلطانها غير خاضع للتغيير, ولا مرتبط بمدَّة زمنيَّة محدَّدة, وتسعى لإدامة انتقال السّلطة وراثيًا, ولكي تحافظ على سياساتها الاستبداديَّة, ونعني به, سلطة الشَّخص الواحد, تفرض فكرًا ممنهجًا مؤثّرًا على العقل الجمعي, "من خلال الجمع بين الدّعوات إلى الشَّرعيَّة التّقليديّة, طرق التّضليل الفكري, حتّى تصل إلى مرحلة القمع, ويتمّ كل ذلك من خلال نظام مرتبط بالسّلطة الحاكمة, عن طريق الولاء الفردي"(مؤنس حسين, 1985م, 43/2).

إنَّ استغلال الشّعر باتجاه الأنويّة السَّلطويَّة, والتَّغني بالفرد على حساب الجمع, هي من أضفت إلى التَّناحر على اختلاف أشكاله, السّياسي والاجتماعي والاقتصادي, وكرّس لفكرة الفرد الواحد, الذي لا يُنازَع في مكانته, وليس له ثانٍ في سلطانه, وهذا ما سعى إليه أصحاب السُّلطة, وصرَّح به كثيرون, وكلّ هذه المآرب السّلطوية, اختصرها المعتضد(ت461هـ) في خطاب شعريّ له, يقول فيه:(المصدر نفسه,43/2)

(الطويل)

فلا مجدَ لِلإنسانِ ما كانَ ضدُّهُ   يُشاركُهُ في الدَّهرِ بالنَّهي والأمرِ

فخطابه الشّعري, يحمل أنويّة سلطويّة واضحة, وتعالٍ كبير, يجعل منه متفرّدًا على غيره, ويؤسس للسلطويّة, من خلال ما تؤمن به كوامن نفسه, ليظهره علنًا, إذ يرى لا مجد يتحقّق بمشاركة الآخرين, ولا بدَّ أن يُقصي كلَّ ضدِ له, لينفرد في النَّهي والأمر, وبهذا الإقصاء ينال المجد والسّيادة, ليغدو مركزًا, والآخرين هامشًا.

صنع الشُّعراءُ عالمًا خاصًا للسلطويّة السّياسيّة(أنويَّة السُّلطة), يقوم على تقويض عالم الآخر, إذ بالغوا في إبراز تعالي طبقة النُّخبة, حتَّى غدا لا وجود يذكر لمن يقابلهم أو ينافسهم, لهذا ألفينا كثيرًا من الخطابات الشِّعريَّة الأندلسيَّة, تصرِّح بتفرّدهم, من خلال مجموعة من الصّفات, التي جعلتهم متعالين على الآخرين, وتُعطي لهم الأحقيَّة في الانفراد بزمام الأمور, "فالمجتمع الأندلسي, يعيش حالة من الصِّراع, ورغبة في تقويض (الآخر) من قبل إعلاء شأن (الأنا) لذا أخذ الشُّعراء بإظهار هذه الرَّغبة في أساليب شعريَّة كثيرة ومتنوعة"(عبد الحسين صادق, 2013م, 185), ومن هنا عملت النُّخبة السَّلطويَّة, ممَّن أجادوا النّظم في هكذا خطابات شعريَّة, على إبراز صفاتهم التي جعلتهم في مصاف الخارقين, الذين لا نظير لهم, وهذا ما ألفيناه في خطابات المعتضد الشّعريّة, وممّا نظمه تخليدا لانتصاره في مالقا, يقول:(عباس إحسان, 1986م, 242)

(الوافر)

بَذَلنَـا جُهْدَنا عَــزْمًا وَ حَـزْمًا ووطَّنَّا الكُمـــاةَ على الطِّعــــانِ
وأجهدْنا العزائِمَ والمَسَـــــاعي وَأعملْنـــــــا الحُسامَ معَ السِّنانِ
ليهنِئ أهلَ مالقةَ انتصــــاري وإعــــزازي لهم بعدَ الهـــوانِ
سينقــذُهم وينْجيــهم جميعًــا رضـــــاعُ الخيرِ إنْ درَت لبـــاني
ألــم اعتقْهم مــن ذُلِّ كُفْـرٍ ترى فـــي ضيمهم مـــلءَ العنانِ
وأنضيتُ الصَّــوارمَ خــاطبـــاتٍ وكان فضــــــاؤها سحرَ البيانِ

ويمكن أن نلحظ في هذا الخطاب الشّعري, تأكيدًا للذات المتعالية, التي أقصت الأغلبيّة, وأسّست للسلطويّة, من خلال ما استُعمل فيه من ألفاظ, تعكّز فيها على ضمير الجماعة, (بذلنا/ وطَّنَّا/ أجهدنا/ أعملنا) ونراه تفخيمًا وتعظيمًا له, وتعاليًا على غيره, بيد أنّ هذه الصّفات الجماعيّة, سرعان ما تختفي ويندثر منها – ضمير الجماعة– ليعلو صوت الأنا, فيتحوَّل إلى إبراز السّلطويّة وإعلائها حتّى نهاية الأبيات, (انتصاري/ إعزازي/ لباني/ اعتقهم/ انضيتُ) لذلك يمكن أن يؤثّر الخطاب على إدراك المتلقي, من خلال ما طغت فيه فردية الانجاز احتفاءً بالانتصار, لتمتزج مع ما أُريد لها فكريًا, في إظهار السّلطويّة على حساب الجماعة.

والمعتضد في حقيقته مهووس بالزّيادة والمجد والعلياء, ومن الطّبيعي أن تتفجّر في مكامن نفسه أبعادٌ تسلّطيّة, لتصل إلى أعتى مراحلها, فهو القائل: (مؤنس حسين, 1985م, 44/2)(الطويل)

أنامُ وما قلبي عن المجدِ نائمُ وأنَّ فؤادي بالمعالي هائمُ

وإن قعدتْ بي عِلّةٌ عن طِلابِهَا فَإنَّ اجتهادي في الطلابِ لَدائمُ

فالذات الطّامحة بالسلطويّة المطلقة, ونيل المجد, هي وحدها من تهيمن على فكره, لتصدير أفضليّتها, ومركزيّتها, التي ستتقوم على تقويض أي طرف آخر؛ لذلك تعمل جاهدة على الإقصاء والتّهميش للآخر.

إنَّ المبالغة في التَّفرّد السّلطوي –السّلطويَّة- ناتج عن "إحساس الذَّات بأنَّها تشغل مكانًا فريدًا في عالم الأشخاص, وأنَّه ليس في وسع أحد غيرها أن يقوم مقامها, أو أن يحلَّ محلَّها"(إبراهيم زكريا, 1971م, 222), فحسام الدّولة, صاحب السَّهلة (ت 463هـ), هو الآخر يصرِّح بذاته المتعالية, من خلال تميّزه وانفرادهه, النّابع من مجموعة صفاته, التي لن يصل لها غيره يقول:(مؤنس حسين, 1985م, 110/2)

(الخفيف)

أنا ملك تجمَّعتْ فيَّ خمسٌ كلُّها للأنام محيٍ مميتُ

هي: ذهنٌ, وحكمةٌ, ومضاءٌ وكلامٌ في وقته, وسكوتُ

فالأنويَّة المتعالية, التي تؤدّي إلى السّلطويّة الفكريّة في هذه الأبيات, بدأت من استعماله لضمير المتكلّم (أنا ملكٌ), لتصدّر تميّزها الفكري على غيرها, من خلال الصّفات التي ازدانت بها, فما يجعلها منمازة على الآخرين, العقل وما يناسبه من حكمة, ورجاحة وسرعة في الرَّأي, والكلام بقدره, والسّكوت, حينما يكون السّكوت مقدَّمًا ومفضلًا على الكلام, ولأجل كلّ هذه الصّفات التي تحلَّى بها, صار مُقَدَّمًا على الآخرين.

يسعى المركز دائمًا, في إظهار تفوّقه على الآخر الهامش؛ لأنَّ العلاقة بينهما –المركز والهامش- في حقيقتها علاقة غير متكافئة, لا سيَّما وإنَّ المركز يمثِّل النُّخبة السَّلطويَّة, التي تمتلك زمام الأمور, والهامش يمثّل الأغلبية المغلوب على أمرها, ولهذا لم يتوانَ أصحاب هذه الطبقة, من المفاضلة على هذا النَّهج, فإن كان المعتضد قد عمد على إضفاء سلطويّته مبرِّزا تعاليه وانفراده المطلق, فلم يفت المعتمد(ت488هـ) هذا الأمر, إذ تغنَّى بمجده وبكلِّ ما حقَّقه, متعاليًا على الآخرين, ليدعم فكرة السّلطويّة, ومن ذلك أبيات له يصوّر انتفاخه الأنويّ السّلطوي, بعد أن ضمَّ مدينة قرطبة إلى مملكته –إشبيلية- سنة 462هـ, يقول فيها:(بدوي أحمد,1951م, 65-66).

(البسيط)

مَنْ للملُوكِ بشَـــــأوِ الأَصيدِ البطلِ هيهات جــــــــاءتكُم مهديَّةُ الدُّولِ

خَطَبْتُ قُــرطبةَ الحَسـناءِ إذ مَنَعتْ مَنْ جـــاءَ يخطبُها بالبيضِ والأسلِ

وكم غَدَت عـــاطلًا حتّى عَرَضتُ لها فــــأصبحتْ في سَرِيِّ الحَلى والحُلَلِ

عُرسُ المُلُوكِ لنا فـــي قصرها عُرُسٌ كلُّ الملوكِ به فـــي مـــأتمِ الوَجلِ

فراقِبوا عن قريبٍ لا أبــــــا لكمُ هجومَ ليثٍ بدرعِ البــــأسِ مشتَمِلِ

ففي الخطاب الشّعري السّابق, يمكن أن نلحظ سلطويّة الذّات الطّامحة والسّاعية نحو تحقيق المركزيّة, متعالية على الآخر لترميه في ركن الهامش, فهو الملك الذي استطاع توحيد ما لم يستطع أحد غيره توحيده, –قرطبة- التي ضمَّها إلى إشبيليَّة, فأنويَّة الذّات السّلطويّة, تعكَّزت على هذا الانجاز, الذي غدا لها دون غيرها, وهذا واضح في الخطاب الشِّعري, إذ هو(الملك الأصيد/ البطل/ اللَّيث/ البأس). إلى جانب ضمير المتكلِّم الذي

استطاع من خلاله الوصول إلى أعلى مراحل الفخر بالنفس, والتَّعظيم بها, والتَّمجيد لها, وهو بكل هذا الحضور المنقطع النظير, صيَّر كلَّ من سواه هامشًا, ليبني حصونه السّلطويّة في إدراكات المتلقين لخطابه.

وفي المعنى نفسه, السّلطويّة الفرديّة, يرى الرَّاضي العبادي (ت484هـ)(مؤنس حسين, 1985م, 70/2), أنَّ علو شأنه على الآخرين, إنَّما هو ناجم عن شجاعته وقوته, التي جعلته منمازًا عليهم, وصوَّر لنا أنويَّته وتعاليه, والحق المطلق بالسّلطة في مجموعة من الأبيات أرسلها إلى أبيه المعتمد, بعد أن نال من شجاعته؛ لتكاسله في الخروج إلى العدوّ, يقول فيها:(عباس إحسان, 1968م,254/4).

(الكامل)

مولاي قد أصبحتُ كافرْ بجميعِ ما تحوي الدَّفاترْ
وفللتُ سكينَ الدوا ةِ وظلتُ للأقلامِ كاسرْ
وعلمت أنَّ الملكَ ما بين الأسنَّةِ والبواترْ
والمجد والعلياء في ضربِ العساكرِ بالعساكرْ

لا يدرك الشرفَ الفتى إلَّا بعسّالٍ وباترْ

إنَّ التّفكير بالسّلطويّة قائم في نفوس المتسلّطين, بشعور أو بدونه, إذ يبرز لنا في الخطاب شجاعته وقوته, التي لولاها لم يولَّ على الجزيرة, فهو أحقُّ بها, وهنا تكمن الفكرة السّلطويّة, المستندة بما يمتلكه من مميزات تجعله أهلًا لها, فأعلت الشَّجاعة والقوة شأنه, بعيدًا عن كلّ شيء غيرها, إذ كفر في مقدَّمة الخطاب, بكل ما تحتويه الدَّفاتر, وعمد على كسر الأقلام؛ لأنَّ قوته لا تكون بالقرطاس, وإنَّما بالرّمح والسيف, ونرى أنَّ هذا ما ينتج فردًا سلطويًا متعاليًا, فيغدو مركزًا, ويصيّر الآخرين هامشًا خاضعًا.

ولم يكن أبو محمد بن هود الجذامي, ذو الوزارتين(مؤنس حسين, 1985م, 165/2), ببعيد عن الاعتداد بتفرّده السّلطوي, مفتخرًا بنفسه, يقول:(المصدر نفسه, 165/2)

... (الطويل)

وما أنا إلَّا الشَّمس غيرَ غياهبٍ دجت فأبت لي أن أنيرَ وأسطعا

فعلياؤه إنَّما هو مقرون بالشَّمس, التي أبت إلَّا أن يشعَّ ضياؤه, ويسطع نوره منها, ليعلن مركزيّته التي تؤسس لفكرة السّلطويّة.

ولملك حصن شقورة (الرومي شهاب الدين, 1995م, 355/3), عتاد الدَّولة أبو محمد عبد الله بن سهل(ضيف شوقي, 1955م,65/22), تعالٍ سلطوي, يُبتنى على تقويض الآخرين, يعضّد أفكاره تلك في خطاب شعريّ له, بعد أن وقع ابن عمّار, أسيرًا عنده(المصدر نفسه, 165/2), إذ يحمل في تضاعيفه , أنويَّة سلطويَّة واضحة, يقول فيه:(المصدر نفسه, 165/2)

(الكامل)

كم ذا التَّأوّهُ طول دهركَ حسرةً لمَّا تعدَّاك الذي لم يعذرِ

لا تطمحَنَّ لِما خُلِقتَ لِدونِهِ للبدرِ قَدْرٌ لم ينلهُ المشتري

فالخطاب يخفي بعدًا سلطويًا مُضمرًا, يُعلي من شأن صاحبه أمام الآخرين, إذ الطّموح بما هو أعلى مكانة وقدرًا, ليس بالمتناول, ولا يجلبُ للطامح بها إلّا الحسرات, فمراتب النّاس متفاوتة, -طبقية استبداديّة- ولن يكون الأدنى عظيمًا, إذ جعل من نفسه بدرًا -المركز- ومنزلة البدر لا يحظى بها المشتري -الآخر- وبطبيعة الحال, يزدان القمر رفعة من حيث حجمه وضيائه, وهذه السّمات غير متوافرة في المشتري, إذ هو أقلّ شأنًا ومرتبة منه, وهنا يكمن مكان الآخر بهذه النّظرة الدّونيّة, وبذلك الاستعلاء عليه, لتُبتنى قلاع السّلطويّة فكريًا.

وذهب الأمير الموحدّي أبو الرَّبيع, (ت604هـ), على هذا المذهب, في مدحه للخليفة الموحدّي يعقوب المنصور بن عبد المؤمن, مهنئًا بفتح قفصة سنة (583هـ), مبرّزًا فرديَّته السّلطويّة على حساب الجماعة, يقول:((الطنجي محمد,2014م,22-23)

(الكامل)

إنَّ الذي سمَّـــــاك خيــــر خليفةٍ جعل الخـــــلافةَ فيكمُ لا تُنــــزَعُ

هيهـــات ســـــرُّ اللهِ أودع فيكمُ واللهَ يُعطِـــي مَنْ يشـــاءُ ويمنـعُ

إن قيلَ مَن خير الخـــــلائف كلَّها فإليك يـــــا يعقوب تومي الإصبعُ

إنْ كُنتَ تتلو السَّـــابقين فـــإنَّما أنتَ المُقَـــدَّمُ والخــــلائفُ تُبَّـعُ

حسبُ البريّةِ أنْ تكونَ إمـــــامَها ونصيـرَها إن رابَ خطبٌ مفظــــعُ

جلَّت صفـــــاتُكَ أن يحيطَ بكُنهها نثرٌ يُـــؤَلّفُ أو قـــريضٌ يُجمَعُ

فالدفع نحو إبراز فرديّة أبي يوسف المؤديّة للفكرة السّلطويّة, هي ما سُعيَ لها في الخطاب الشّعري, من خلال مجموعة من الخصال التي جعلته منمازًا على غيره, بدءًا من مركزيَّته القائمة على أصوله, فالخلافة فيهم لا يمكن أن تُنتزَع, لعلو شأن المقصود, إذ سرُّ الإله مستودع فيهم, وبهذا هم حصلوا على عطاء الله, الذي يعطيه لمن يشاء, أعطاه لهم, فمركزيَّتهم السُلطويَّة وتهميش الآخرين قائمة على الشَّرعيَّة الإلهيَّة. ثمَّ ينتقل إلى تخصيص صفاته التي ليس لغيره منها شيءٌ, فهو المقدَّم على كلِّ الخلائف, وفي الوقت نفسه, هم يشيرون

بأفضليّته, إذ تومي إليه أصابعهم تعظيمًا, وبهذا غدا مركزًا سلطويًا, وكلُّ من عداه –الآخر–حتَّى مَن سبقوه له تُبَّعُ.

إنّ السّلطويّة التي يسعى لها المتسلّطون, تضعهم في حصون مشيّدة, وقلاع يصعب على الهامش مجاراتها, أو حتّى محاولة الانقضاض عليها, ولهذا كانت مثل هذه الفكرة وسيلة لتحقيق رغبات البقاء والاستمرار والتّوريث, ولم تغب هذه الفكرة عن كثير من أصحاب السُّلطة, على اختلاف حقبهم, لا سيّما أولئك الذين أجادوا الشّعر , ومنهم يوسف الثَّالث(ت820هـ), إذ ألفيناه في إحدى مرثيَّاته لمن عزَّ عليه فقده, يبرِّز لنا انتفاخًا سلطويًا, وتعاليًا واضحًا, إذ يقول:(كنون عبد الله, 1965, 14-17)

(الطويل)

وكيف يُقيلُ الــدَّهرُ للموتِ عثــرةً	ونحنُ نُقيلُ الــدَّهرَ مِــن عثراتِهِ
وإنِّــــي مَن يُردى الكماةَ ثباتُهُ	وقد هدَّ ركنُ الصَّبرِ فــــي وَثباتِهِ
وإنِّــــي مَن يخشى الملوكُ نِزالَهُ	ولم يخشَ صــرفُ الدَّهرِ مِن غرماتِهِ
وإنِّـــي لَمَن تهوى الخلائقُ أن ترى	وقد جُعِلت طرًّا فــــداءً لِذاتِهِ
وإنِّــــي مَن ترجو العفاةُ نوالَهُ	وتخشى أسودُ الحــــربِ حدَّ شباتِهِ
ومن ترهَبُ الأبطــالُ سطوةَ بأسِهِ	ويرتــــاح منهُ اللّيثُ في أجماتِهِ
ومَن يتَّقي فــــي بطشِهِ بعُداتِهِ	ويُلفى الــرِّضا فــي حلمِهِ أنـاتِهِ
ومَن دجــــا ليلٌ وأظلمَ حــادثٌ	تطلّعَ نـورُ الصُّبحِ مِـن قسمـــاتِهِ

فعلى الرَّغم من كون غرض الخطاب الشّعري الرّثاء لِمَن فقده, بيد أنَّه جعله ومن بدايته حتى نهايته, يضجُّ بالأنويَّة السّلطوية, وتفاخر بالذّات المتسلّطة, مستعملًا ضمير الجماعة (نحن) في أولها, لتعظيم شأنه, لينتهي بنيل مراده, في مجموعة من المضامين, ارتكز فيها على استعمال ضمير المتكلّم, المؤكد بحرف التَّوكيد (إنَّ), والذي يكرِّره طويلًا في النَّص, وحتَّى استعمال ضمير الغائب (الهاء) بما يعود على شخصه المنتفخة, والذي يصوّر فيه الآخرين صاغرين أمام قوّته وبطشه, وعلو شأنه على النّظراء من الملوك, أو على جميع الخلائق, مَن هم دونهم في المرتبة, ولهذا نراه انتفاخًا سياسيًا, وتعاليًا سلطويًا مبالغ فيه, ولأجل ذلك يكون تعاليًا على السَّواد الأعظم, إذ جعل من نفسه مركزًا, أعلى فرديَّته, ومن الآخرين مهما كانت مراتبهم هامشًا, في محاولة منه للحطِّ من شأنهم.

ثالثًا: صناعة الجهل:

كثيرًا ما تصطدم السّلطة بوعي المجتمع لنيل شرعيّتها, والذي يُشكّل عائقًا حقيقيًا لفرض إراداتها السّلطويَّة, لذا تسعى جاهدة لنيل تلك الشّرعيّة, لضمان دوام سلطانها, من خلال صناعة الجهل, وتجهيل الوعي الجمعي, فتبدأ بنشر الأكاذيب المضلِّلة, والرّعب والخوف, باستعمال شتّى الأساليب المتاحة, للتأثير على الإدراك

الفكري, ولكي تصل لمآربها السّياسيّة, لا بدّ لها من التّرويج الدّعائي لكلّ ما تحاول نشره, بدءًا من أفضليّتها المطلقة, وتوسّمها بصفات التّفرّد والقيادة, وكلّ ما عداها غير قادر على قيادة الدّفة السّلطوية, "فإنَّ من أهم أساليب صناعة الجهل, هي اختلاق حالة من الشكّ في ذهنيّة المحكومين, بعدم إمكانية الغير في إدارة الحكم"(فؤاد نعمات, 1985م, 11), ومن هنا تبدأ بفرض (أيديولوجياتها) على الفكر الجمعي, لتأمن التّمرد أو العصيان, وتنتج مجتمعًا مُنقادًا, وتبعيّة عمياء, يسهل معها دوام البقاء, والتّفرّد السّلطوي(عبد الجواد نعيمة,2019م, 100).

مثّلت كثيرة من الخطابات الشّعرية, بوصفها الأداة الدّعائيّة المائزة وقتذاك, ترويجًا دعائيًا, لبثِّ التّضليل السّياسي, وصناعة الجهل, وتجهيل الفكر الجمعي, إذ دفعت النُّخب السُّلطويَّة بهذا الخطاب الفئوي, القائم على إبراز الذّات المتسلّطة, بأبهى صورها انتفاخًا, وفردانيتها وأفضليّتها, جعل منها مركزًا وغيرها هامشًا, وهو من رسم لتلك المرامي السّياسيّة, التي جعلت من الشُّعراء يتسارعون بالنّسج على منواله, ليصنعوا خطابًا شعريًا مضلِّلًا, يقوم على نشر الجهل الفكري, والذي يستهدف إدراكات الآخر, لينتج مجتمعًا خاضعًا, لا يستطيع الخوض في غمار التّفكير بالتّمرّد أو الخروج عن الطّاعة, وبهذا كلّه صرّح الشّاعر ابن اللَّبانة(ت507هـ), ليضع نفسه على جهوزيَّة تامَّة, لإضفاء صفات الانفراد التّسلّطي, على هذه الفئة حين الطّلب, إذ يقول:(السعيد محمد, 2008م, 72)

(المتقارب)

سيطلبني المَلكُ مَهما أرادَ لباسَ نسيجٍ مِنَ المَفخرِ

ولهذا كان استقطاب الملوك للشعراء بديهيًا؛ ليؤسّسوا لهذا النّهج الذي يستدعي تضليل الفكر الجمعي, ومحاولة إقناع الأغلبيَّة بأفضليّة النّخب السّلطويّة, فكانوا أبواقًا دعائيّة لهم ولسلطتهم, فابن زيدون (ت463هـ) مثلًا, ولقربه في مرحلة من مراحل حياته, من هذه الفئة المُتسلِّطة, كان من أبرز الشُّعراء تضليلًا للعقل الجمعي, المتناغم مع الأهواء السّلطويَّة, وبشتَّى أساليب الخطاب الشِّعري, ومن ذلك ما قاله في المعتضد:(عبد العظيم علي, 1957م, 205-207)

(الوافر)

ومِــــن ســـــرِّ ابنِ عبَّادٍ دليلٌ بِهِ بِـــانَ الفســــادُ مِــن الصلاحِ
هــــــو المَلِكُ الّذي بَرَّت فَسرَّت خِلالٌ مِنهُ طــــــــــاهِرَةُ النَّواحي
وأفرس للمنــــــابرِ والمذاكي وأبهى فـــــــي البرودِ والسّلاحِ
هـــو المُبقي مُلوكَ الأرضِ تَدمى قُلوبُهُم كَـــــأفواهِ الجـــــراحِ
رآهُ اللهُ أجوَدَ بالعَطـــــــايا وأطعَنَ بالمكَـــــايدِ والـــــرِّمـــاحِ
...

وأمنَعَهُم حِمى عِـــرضٍ مَصـــونٍ وأوسَعَهُم ذُرا مـــــالٍ مُبَـــاحِ
فـــراضَ له الـــورى حتَّى تَأدَّت إليهِ أتـــــاوةُ الحيّ اللّقـــاحِ
لِمُعتَضِدٍ بِهِ أرضـــــــاهُ سعيًا فـــــــأقبلَ وجههُ وَجهَ الفَلاحِ
فمن قـــــاسَ المُلُوكَ إليهِ جهلًا كَمَن قـــــاسَ النُّجومَ إلى بَراحِ
ومُعتَقِدُ الرِّياسةِ فـــــي سواهِ كمُعتقدِ النُّبوةِ فـــــي سَجاحِ

فحينما أراد ابن زيدون تأطير مركزيَّة ابن عبَّاد, وإبراز فرديَّته, وتهميش الآخرين, بثَّ خطابًا ترويجيًا, يرتكز على دعايات تضليليّة, يُراد منها, المساهمة في تجهيل العقل الجمعي, بدأها من خلال إيهام المتلقي بأفضليّة الفرد السّلطوي, على كلّ من سواه, ممّن هم في مصاف المُلك أو دونهم, فجعل الآخر الملكي, مليء بالجراح, (هو المُبقي ملوك الارض تدمى قلوبهم)؛ لكونه محفوفًا برؤية الله, إذ رآه (أجودهم بالعطايا/ وأكثرهم طعنا بالرماح/ وأمنعهم حفظًا للعِرض/ وأوسعهم ذرا مال) ولأجله أدَّت الجزية إليه حتّى من أولئك المانعين لها(قوم لقاح) "وهم قوم لم يدينوا للملوك, ولم يُملَكوا, ولم يُسبَوا في الجاهلية"(ابن منظور, 1985م, 4059/5), وهذه الصّفات هي من جعلته منفردًا بالخصال والفعال, ولم يكتفِ ابن زيدون بهذا القدر لتمجيد أوحديَّة المُعتضد, وفرديَّته, وعلو شأنه على من سواه من الملوك, بل سارع لإثبات سطوته على الآخرين, وشرعيَّة سلطته, حينما قرن زعامته بالنّبوَّة, فمن يعتقد بسواه ملكًا, فكمن يعتقد النّبوَّة في سجاح, التي ادَّعت النّبوَّة. فإلى جانب إعلاء فرديَّته السَّلطويَّة, أضفى عليها جانبًا شرعيًا. ونرى أنَّ كلّ ما ورد في الخطاب الشّعري, هدفه تضليل المتلقي, وتجهيل مداركه, ليكون أمام خيار واحد, لا ثاني له, السّلطة المطلقة للفرد السّلطوي, ووجوب الخضوع والطّاعة له.

ونلحظ خطاب الشّاعر, أبو محمد غانم بن وليد المالقي (ت470هـ)(عباس إحسان, 1997م, ق2:1/853-863) الذي يسعى فيه إلى إبراز فرديَّة, إدريس بن يحيى الحمُّوي, العالي بالله, إذ يقول:(مطرود عامر, 2009م, 25)

(السّريع

واستقبل المُلْكَ إمـــــامُ هـدى فـي أربـــعٍ بعـــدَ ثلاثيـنا
خلافةُ العـــــــالي سَمَت نحوَهُ وهو ابنُ خمسٍ بعـــدَ عشـــرينا
إنّي لَأرجو يـــــا إمـــــامَ الهدى أن تملِكَ المُلْكَ ثمـــــــانينا
لا رَحِـمَ اللهُ امرءًا لـــم يقُـــــلْ عنـــدَ دعـــــائي لَكَ آمينـا

فتجليَّات إبراز فردانيَّة إدريس بن يحيى, واضحة في الخطاب الشِّعري, إذ عمد على إعلاء شأنه وتمجيده, وتهميش الآخر, من خلال حبِّ التَّملك للسلطة, والبقاء والاستمرار, بعيدًا عن أي التفات للزَّمن, إذ أبرم الشَّاعر علاقة تجاذبيَّة بين الزَّمن, والفرد السّلطوي, والتي تحتلُّ نفس مكانتها في أي تعاقب زمني.

إنَّ استلهام معانٍ تدلُّ على السّمو والرّفعة والسِّيادة, هي من أسّست لمفهوم المركز, وأشاعت لثقافة التّجهيل الفكري, إذ جعلت من الفرد فوق الجميع, ولهذا انتجت مركزيّة للفرد السّلطوي, ولغيره هامشًا, ومن هذه المعاني التي يراها ابن عمار(ت477هـ), في المعتمد, قبل خروجه عن طاعته, يقول فيها:(خالص صلاح, 1957م, 226)

(المتقارب) ...

هنيئًا فأنتَ ملكُ الملو ك قد صرَّح الجدُّ للمازح

وما أخَّرتني عنكَ النُّجو م يا غُرَّةَ القمرِ اللّائح

ويمكن أنْ نلحظ, أنَّ المعاني التي ركَّز عليها الشّاعر في خطابه الفئوي, جعلت من المعتمد مركزًا, وباقي الملوك هامشًا, ومهّدت لإخضاع الإدراك الجمعي على استساغة فكرة فردانيّته السّلطويَّة, فقد انماز عن الملوك كما انماز القمر بين النُّجوم, (غرَّة القمر) التي لم تأخره عنه (النُّجوم), ليُعلن صراحة سلطويَّته المطلقة, على الجميع دون استثناء, وبأنَّه فوق كلِّ الملوك, فهو (ملك الملوك).

واغتنم ابن الحدَّاد(ت480هـ), تلك المعاني, من خلال العمل على صناعة الجهل الفكري, المؤثر على الوعي الجمعي, لنشر فكرة الأفضليّة, لإعلاء شأن صاحبه, المعتصم بن صمادح, يقول:(طويل يوسف, 1990م, 244-247)

(الكامل) ...

مُتَلَألِئٌ يَثنِي العُيونَ نَواكِسًا كالشَّمسِ تَعكِسُ لَحظَ مَنْ يَتَأمَّلُ

لا يتّقي رمْد النّوائبِ ناظرٌ يُجلى بمردودِ صفحتيه ويكتحلُ

فوجه الملك, المتلألئ كالشَّمس, زاده علوًا ورفعةً, إذ جعل كل الأنظار أمامه نواكس, غير قادرة على النظر فيه, والشمس تزداد في رفعتها على الآخرين, الذين لن يتجرأوا مجرد التَّفكير في النَّظر إليه, وهو الملجأ من صروف الدّهر ونوائبه. ونرى أنَّ هذا ما يُراد إيصاله وفرضه على إدراك المتلقين, ليكونوا صاغرين أمامه.

إنَّ الاتّكاء على المقارنات بين الكواكب والنُّخبة, طريقٌ انتهجه الشُّعراء, لرسم عظمتها, وهذا الطريق إنَّما كان لأنَّ "أهل السُّلطة, ومؤيديها, كانوا يشعرون, بالرَّفض الجماهيري للألقاب السُّلطانيَّة, وتصرفاتهم السِّياسيَّة, وربَّما شعر النُّخبويون أنفسهم, بعدم القناعة في تجسيد تلك الألقاب فيهم"(جسوس عز, 2019م, 25), لذلك نال حاكم بلنسية, عبد الملك بن عبد العزيز(ت457هـ), من ابن الزَّقّاق (ت528هـ) مدحًا قائمًا على التَّشبيه بعلو الكواكب, وسموّها, ليصل إلى أسمى مراحل التَّفخيم, وإعلاء شأنه دون الآخرين, يقول:(ديراني عفيفة, 2014م, 65-66)

(الكامل)

يـــا كوكبًا بَهـــرَ الكواكبُ نورُهُ   ومحا دُجى الحـرمانِ منه ضيـاءُ
لكَ هِمَّـــةٌ علـــويَّةٌ كرميَّـــــةٌ   وسجيَّـــةٌ معســولةٌ لميـــاءُ
ومكـــانةٌ فـــي المجدِ أنتَ عَمرْتَها   بِعُلاكَ وهـــي مِنَ الأنـــامِ خَلاءُ
فتَّقتَ أكمـــــــامَ البلاغةِ والنُّهى   عـن حكمةٍ لـم تُؤتَها الحُكمـــاء
ركنَ الأنـــــامُ بهِ إلــى ذي عِزّةٍ   قعساءُ ليس كمثلهــا قعســـاءُ
لو أنَّ ألسنَـــــهم جحدنَ صنيعَـهُ   نطقـتْ بذاك عليهم الأعضـــاءُ
بـــأغرّ ذي كرمٍ نَمته مِـن بنـــي   عبـــدِ العـزيزِ عصبةٌ كُرَمـــاءُ

بنى ابن الزَّقاق نصَّه على نسقين مؤسّسين لفكرة صناعة الجهل الفكري, الأول عمد فيه إلى إبراز فرديَّة الأمير, والذي جعله متعاليًا على الآخرين من الملوك ومَن دونهم, فجعل الجماعة مفتقرة إلى صفاته, إذ صيَّره مركزًا, وما عداه هامشًا, فهو (كوكب) منير, وسواه من الكواكب مظلمة, يبهرهم نوره, إذ بنى مجده ومكانته العالية بنفسه, تلك التي افتقر الآخرون لها, والنَّسق الآخر, وهو ما منحه مكانة أسمى على مكانته, ألا وهو نسبه في بني عبد العزيز, وكِلا النسقين زاداه علوًّا ورفعةً, وتفرّدًا عن غيره, وبهذا يغدو الفرد السّلطوي مفروضًا فكريًا على الآخر, وتصديقه والخضوع له لا مفرّ منهما.

وللأعمى التّطيلي (ت525هـ), خطابٌ شعريٌّ, يجسّد فيه تعالي ابن زهر, وفي الوقت نفسه يعمل على إشاعة مقبوليّته المتأتّية من تلك الرّفعة التي فاقت رفعة الكواكب, , فله ما يشاء من الصِّفات التي يزدان بها, وجعلته متفرّدًا ومتعاليًا على الآخر, يقول:(ديب محي, 2014م, 175)

... (الكامل)

وعُلا ابنُ زُهْـرٍ والكواكبُ دونها   في كلِّ يَوْمَيْ نائلٍ وطعانِ
المشتفي الشَّافي الحَميُّ الحامي   الآمرُ النَّاهي البعيدُ الدَّاني
رِدْءُ الكتيبةِ خَلْفَها وأمامَها   كالموتِ تلقاه بكلِّ مكانِ

ويمكن أن نلحظ البعد التّجهيلي في مكامن الخطاب الشّعري, الذي اتّخذ من الفرد السّلطوي أداة للمفاضلة, فما دامه في علو ورفعة فالآخر وضيع عنه ومتدن, فالتّركيز على صفات الفرد السّلطوي, والمبالغة فيها, جعلتنا في شكٍّ في مآربه, إذ استلهم علو الفرد السّلطوي, وفرض هذا التّعالي على إدراك المتلقي, مصوّرًا إيّاه من خلال رفعته على مجموعة الكواكب (والكواكب دونها), ثمّ ينحدر لنشر صفاته (المشتفي/الشّافي/الحَمي/الحامي/ الآمر/النّاهي/البعيد الدَّاني) حتّى يفرض قوة قبضته على الآخر, إذ يصيّره

(كالموت) يلقاه أينما اتّجه, فلا مفرّ منه, وبكل هذه الصّفات الدّعائيّة, تجعل منه متفرّدًا في كلّ شيء, ولن يكون بإمكانيّة الآخر, الاعتراض أو التّمرّد أو مجرد عدم الخضوع, إزاء كلّ ما نثره عليه منها.

ويستعير أبو جعفر بن سعيد (ت599هـ), من أنسنة الدَّهر, لإبراز علو ورفعة الخليفة الموحدي, عبد المؤمن بن علي, يقول:(الربيعي أحمد, 2014م, 132)

(الطويل)

تكلَّم فقد أصغى إلى قولك الدَّهر وما لِسواك اليوم نُهى ولا أمرُ

ورِم كلَّ ما شئته فهو كائنٌ وحاول فلا برٌّ يفوتُ ولا بحرُ

وحسبُك هذا البحر فألّا فإنَّه يُقبِّلُ تُربًا داسه جيشُك الغَمْرُ

وما صوتُهُ إلَّا سلامٌ مردَّدٌ عليكَ وعن بشرٍ بقربك يَفْتَرُ

ونرى أنَّ التّلاعب الفكريّ بالمتلقي, كان من خلال بيان العظمة السّلطويَّة المبالغ فيها, إذ أضفى على الدَّهر صفات الإنسان, الخاضع له, فهو يُصغي لقوله, ولم يكتف بهذا فحسب, بل أنسن البحر هو الآخر, جاعلًا من صوت أمواجه سلامًا يردَّده عليه, وأنسنة الأشياء "أو ما يُعرَف بالتشخيص؛ تقنية فنية يلجأ إليها الكتَّاب والشُّعراء والفنَّانون –عادة– لتحميل الجماد قيمًا بشريةً, تمثّل تجسيدًا لفكر المبدع, فتتحول الأشياء إلى حامل لرسالته وناطق باسمه"(الرنتيسي وسن, 2012م, 12), ولأجل ذلك لا يحق لسواه النَّهي والأمر, فهو فوق الجميع.

ويدفع أبو عمرو بن غياث(ت 619هـ) (عباس إحسان, 1986م, 81) في مدحه لوالي إشبيلية أبي إسحاق إبراهيم بفردانيّته, يقول:(ابن شريفة, 1996م, 15)

(الطويل)

فللهِ يـومٌ قـد تَجلَّى بـأُفقهِ وليس لَـهُ بـالأُفقِ نورٌ يُماثلهْ

تَخِذْنـاهُ عيدًا لا نَرى العيدَ غيره أواخِـرهُ محمـودةٌ وأوائلهْ

فالخطاب يروّج لعدم تماثل أيّ شخص مع الفرد السّلطوي, إذ لا مثيلَ له (ليس له بالأفق نور يماثله).

ويصوّر ابن حريق البلنسي (ت 622هـ), المجد منقطعًا نسله, لولا شخص قائد جيش الموحدّين, أبي عبد الله بن سبرة, ليساهم في نشر أفكار مؤثّرة على متلقي الخطاب, يقول:(ابن شريفة,1996م, 143)

(الطويل)

ولـولا أبو عبد الإلاه بـن سـبرةٍ لأضحى نِجارُ المجدِ منقطعَ النَّسـلِ

إذ يسعى الخطاب لفرض مآرب الفرد السّلطوي, بعدما يضحي المجد مرهونًا بسلطته وقيادته, فلا مجد يكون مع غيره.

ولمرج الكحل (ت634هـ) أسلوبه الشّعري, الذي يجعل فيه السّلطان محمد بن يوسف الجذامي(ت635هـ)(الزركلي خير الدين, 1980م, 132/3), مُقدَّمًا على الآخرين, يقول:(التهالي بشير, 2009م, 80)

(الطويل)

قضـــــى ربُّهُ أن يمْلِك الأرضَ آخِـــرًا فقدَّمه فضــــلًا وأخَّــره عَصْرا

وكــــــم آخرٍ قد جـــاء بالفضل أولًا وهل تُجعلُ الدُّنيـا سواءً مع الأخرى

ففـــي رمضــــانَ ليلةُ القدرِ كونُها ومـا صُحَّحَتْ إلّا أواخـــرهُ العَشرا

فقد بنى خطابه على أفضليّة خاصّة, إذ تأخُّر زمانه, لا يعني تأخره وتقدّم من سبقه عليه, إذ يرى تأخره الزّماني ما هو إلَّا تعظيمٌ له, كتعظيم الآخرة على الدُّنيا, أو تعظيم الليالي الأخيرة من شهر رمضان, على أوائلها, ولهذا كان واجبًا عليه امتلاك الأرض دون منازع له, فيغدو الخطاب فئويًا, يساهم في إشاعة التّضليل السّلطوي, والعمل على تجهيل إدراك المتلقي.

ويرتقي السُّلطان أبو عبد الله المستعين بالله(محمد السَّابع), مقامًا لا ينافسه عليه أحد, حينما وصفه ابن زمرك (ت793هـ), يقول:(النيفر محمد, 1997م, 51052)

(الطويل)

تقرُّ لــــــكَ الأملاكُ أنَّك فخــــــرها فكمْ ملكٍ مِـن بـابِكَ اعتزَّ مَنـــزِلا

تُعِدُّكَ يَوْمَ الحـــــربِ منجى وملجئـاً وتدعوكَ يـومَ السَّلمِ مـولىً ومـوئلا

إذ يُعضّد فكرة الإقرار الشّرعي لسلطته, حينما يجعل كلَّ الأملاك تقرُّ بأنَّ الفرد السّلطوي فخرها, إذ يعدّونه الملجأ والمنجى لهم في يوم الحرب, وتصيّره مولى في السّلم.

ويجعل ابن فركون(بقي إلى ما بعد سنة 820هـ) من يوسف الثَّالث, مُقَدَّمًا على كلِّ الملوك المعروفين بالصّفات, يقول:(ابن شريفة, 1987م, 243)

(الكامل)

فُقتَ الملُوكَ الأكرمينَ مآثِرًا فبلغتَ في شأوِ العُلى أقصى المدى

فَلَأنتَ أسماهم وأسناهم إذا طالوا وأنجز في المكارمِ موعدا

وأجلّهم قدْرًا وأشرفهم حلا وأعمَّهم رِفدًا وأنداهم يدا

إنَّ السَّحابَ وإنْ تتابع جودها لم تتَّخذ إلَّا نوالك مورِدا

إذ ثَمَّة مقارنة واضحة في الخطاب الشّعري الموجّه والممنهج, تقوم بين شخص يوسف الثَّالث وانتفاخه السّلطوي, وبقية والملوك, ونتائج المقارنة تنحاز لجانبه على حساب الآخرين, إذ غدا من خلالها متفرّدًا عليهم,

فهو المركز الذي هم دونه, وقد بلغ العُلا والمجد متفرِّدًا على من سواه, من خلال صفاته التي وسمه الشّاعر بها, وعمل على نشرها, والتّرويج الدّعائي لها, فهو, (أسماهم) منزلة ورفعة, و(أسناهم) ضياءً وذكرًا, وأكثرهم (إجلالًا) وأشرفهم (حلًا), معطاء يفوق عطاؤه عطاءهم, حتّى غدا السَّحاب يقصده.

إنَّ تضليل العقل الجمعي, وتحجيم إدراك المتلقي, بمختلف أنواع التّضليل السّياسيّ, وسيلة وجد فيها المتسلّطون ملاذًا, يُؤمِّن لهم مجتمعًا تبعيًا خاضعًا, ولعلّ من أشدّ أنواع التّجهيل الفكري, محاولة انتاج عقول خاضعة للأهواء التَّسلّطيَّة, تُسيَّر بما يُفرَض عليها, من خلال وسائلَ عدّة, كالتَّصريح بتعظيم الفرد السَّلطوي, في خطابات الشّعر الفئويَّة الموجّهة, من خلال ألفاظ صريحة, توهم المتلقي بعظمة الفرد السّلطوي, وتجعله مرتفعًا عن الجميع, كاستعماله ألفاظ (الواحد, الأوحد) لبيان العظمة الفرديّة, ولعلَّ مثل هذا التَّصريح كثيرٌ في المديح الأندلسي, ألفيناه من قبل أيام عهد ملوك الطوائف, ومتواصلًا حتّى نهاية الأندلس.

الخاتمة:

إنَّ أساس البحث في الخطاب الشِّعري, الذي وقفنا عليه في هذا المبحث, كان قائمًا على الكشف عن المضمرات المتعلّقة بين المركزيِّة والتهميش, مركزيَّة الفرد السُّلطوي, وإعلاء شأنه, وتهميش الجماعة, وإلغاء دورها, إذ عامل الخطاب الفرد معاملة الجماعة, واختزله بهذه الكيفيَّة, التي صيَّرته فكأنَّه أمَّةٌ, وهو في الحقيقة لا يبتعد عن المضمر المقدّس, الذي يقوم على بعدٍ ديني خفي, يُراد منه أن يجعل النّخبة بمصاف الأنبياء المقدّسين, فيغدو الفرد السّلطوي أمّة, كما وصف الله سبحانه وتعالى, نبيَّه إبراهيم﴿υ﴾, بالأمَّة, في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(النّحل/ 120).

لكلِّ ذلك نرى, أنّ الخطابَ السّلطويَّ الفئويَّ, قد سار على مستويين, الأول عمد على جعل كلِّ الطَّبقات السّاعية لإظهار تسلّطها, والتي تزامنت مع المقصود السّلطوي, الذي يُراد إعلائه, لا تُعادل شيئًا أمامه, من خلال ما سُعيَ إلى إقصائهم وإبعاد أيّ أثرٍ لهم, وجعلهم تابعين وخاضعين له, فالمركزيَّة لصاحب الخطاب المنشود, والهامش لغيره.

أمّا المستوى الآخر, فقد عمد على تذويب السَّواد الأعظم من الجماهير, وتضليل إدراكهم الفكري, وصناعة فكر جاهل يصدّق ما يُنثر في الخطابات الدّعائيّة للسلطة, وبالتّالي تهميش دورهم, بل جعلهم بحاجة ماسَّة إلى الفرد السّلطوي؛ لشدّة ارتباطهم به دون غيره.

لذا اتَّجه الخطابُ الشِّعريُّ الأندلسيُّ, منهجًا يكاد يكون واحدًا في حقبه الأندلسيَّة المختلفة, تعظيمًا وفردانيَّة وتفخيمًا, استندوا فيه تارة على القيم الخلقيَّة التَّقليديَّة, التي يراها قدامة بن جعفر "... إنَّما هي: العقل والشَّجاعة والعدل والعفَّة, وكان القاصد لمدح الرِّجال بهذه الخصال مُصيبًا, والمادح بغيرها مُخطئًا"(خفاجي محمد, 1985م, 39). وتارة أخرى, يجعل من رفعة النُّخبة السَّلطويَّة, قائمة على الاقتران بكلِّ شيء سامق, كالكواكب والشمس والقمر والشُّهب, التي من خلالها يزيد من إعلاء شأنها.

وقد كان مثل هذا الخطاب الفئوي, داعمًا حقيقيًا, لأي سلطة مثَّلها, وهي تبحث ساعية عن الشّرعيَّة والانفراد, من خلال ما استُعمِلَ لها من ألفاظ مختلفة, تفرَّقت بين الواحد والأوحد, والانتفاخ الذّاتي, والانفراد بكلِّ شيء, مهمشًا الآخر, مهما علت مرتبته ومكانته, أو تدانت.

المصادر والمراجع:

- (القرآن الكريم)
- الأعلام, خير الدين الزركلي, دار العلم للملايين, بيروت, 1980م.
- ابن حريق البلنسي حياته وآثاره. دراسة: محمد بن شريفة, الطبعة الأولى, 1417هـ, 1996م.
- تُحفة القادم, لأبي عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي, (595- 658هـ), أعاد بناءه وعلّق عليه: الدكتور إحسان عبّاس, دار الغرب الإسلامي, ط1, 1406هـ, 1986م.
- الحلَّة السَّيراء, لابن الابار(595-685هـ/ 1199-1260م), حقّقه وعلّق حواشيه, الدكتور حسين مؤنس, دار المعارف, ط2, 1985م.
- الاستبعاد الجماعي محاولة للفهم, جون هيلر, جوليان لوغران, دافيد بياشور, ترجمة: أ. د. محمد الجوهري, الكويت, عالم المعرفة, 2007م.
- دليل المصطلحات الدراسات الثّقافيّة والنّقد الثّقافي, إضاءة توثيقيّة للمفاهيم المتداولة, سمير خليل, تعليق: سمير الشيخ, دار الكتب العلميَّة, بيروت – لبنان, 2014م.
- ديوان الأمير أبي سعيد الرَّبيع, سليمان بن عبد الله الموحد, تحقيق: محمد بن تاويت الطّنجي, محمد بن العبّاس القبّاج, سعيد أعراب, محمد بن تاويت التّطواني, منشورات كليّة الآداب, جامعة محمد الخامس.
- ديوان الأعمى التّطيلي, جمعه وحقّقه الدكتور محي الدين ديب, المؤسسة الحديثة للكتاب, لبنان, ط1.
- ديوان ابن الحدّاد الأندلسي, تحقيق: د. يوسف علي طويل, بيروت, دار الكتب العلميّة, ط1, 1990م.
- ديوان ابن خفاجة, تحقيق عبد الله سنده, دار المعرفة بيروت, ط1, 1427هـ, 2006م.
- ديوان ابن الزقاق البلنسي, تحقيق عفيفة محمود ديراني, دار الثقافة بيروت- لبنان,2014م.
- ديوان ابن زيدون ورسائله, شرح وتحقيق: علي عبد العظيم, القاهرة, نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع, 1957م.
- ديوان ابن فركون, تقديم وتعليق محمد ابن شريفة, مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية, ط1, 1407هـ, 1987م.
- ديوان ابن لبّال الشريشي(508-582هـ) تأليف محمد ابن شريفة, ط1, 1996م.

- ديوان ابن اللّبّانة الداني (مجموع شعره), جمع وتحقيق: الأستاذ الدّكتور محمد مجيد السّعيد, ط2, 1429هـ, 2008م, دار الراية – الأردن.
- ديوان أبي جعفر أحمد بن سعيد, جمع وتحقيق: د. أحمد حاجم الربيعي, دار غيداء للنشر والتّوزيع, 2014م.
- الدّيوان, شعر المعتضد ببن عبّاد, https://www.aldiwan.net/cat-poet-al-Mutadid-bin-Abbad تاريخ الدخول, 20/ 7/2022.
- ديوان المعتمد بن عبّاد, جمعه وحقّه: أحمد أحمد بدوي و حامد عبد المجيد, أشرف عليه: الدكتور طه حسين, المطبعة الأميرية–القاهرة, 1951م.
- ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني, صنعه وحقّقه وقدّم له: الدكتور محمد مفتاح, دار الثقافة, ط1, 1409هـ, 1989م.
- ديوان مرج الكحل الأندلسي (ت634هـ), تحقيق: البشير التهالي, رشيد كناني, ط1, مكتبة القراءة للجميع, الدار البيضاء–المغرب, 1430هـ, 2009م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة, أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 442هـ), تحقيق د. إحسان عبّاس, بيروت – لبنان, دار الثقافة, 1997م.
- السّلطة المرابطيّة الرّمزي والمتخيّل, عزّ الدّين جسّوس, المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات, قطر, ط1, 2019م.
- صناعة الجهل كتاب في السّياسة, دكتورة نعمات أحمد فؤاد, دار المستقبل العربي, القاهرة, ط1, 1985م.
- صورة الآخر في شعر المتنبي (نقد ثقافي), محمد الخباز, المؤسسة العربية للدراسات والنّشر, 2009م.
- العقل والجهل في الكتاب والسّنة, محمد الرشهيري, تحقيق دار الحديث للطباعة والنّشر والتّوزيع, المكتبة الشّيعيّة.
- لسان العرب, محمد بن مكرم بن علي, أبو الفضل, جمال الدين ابن منظور الرّويفعي الإفريقي (ت711هـ) دار صادر –بيروت, ط3, 1414هـ.
- اللغة والأدب في الخطاب الأدبي, تزفتان تودروف, ترجمة: سعيد الغانمي, بيروت المركز الثقافي, 1993م.
- ما يجب أن نعرفه عن السّلطويّة, إريكا فرانتز, ترجمة: حمزة عامر, الشركة العربية للأبحاث والنّشر, 2022م.

- محمد بن عمار الأندلسي, دراسة أدبية تاريخية, لألمع شخصية سياسية في تاريخ دولة بني عباد في إشبيلية, تأليف: الدكتور صلاح خالص, مطبعة الهدى–بغداد, 1957م.
- مدخل في نظريَّة النَّقد الثَّقافي المقارن, المنطلقات, المرجعيات, المنهجيات, أ.د. حفناوي بعلي, الجزائر, منشورات الاختلاف, ط1, 2007م.
- مشكلة الحياة, زكريا إبراهيم, مكتبة مصر, القاهرة, دار مصر للطباعة, 1971م.
- المغرب في حلى المغرب, علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي, (685هـ), تحقيق: د. شوقي ضيف, ط3, 1955م.
- مِن أعلام الأندلس أبو محمد غانم بن وليد المالقي (ت470هـ), أخباره وجمع آثاره, عامر عبد الكريم مطرود, جامعة الكوفة, مجلة دراسات الكوفة, العدد14, 2009م.
- موسوعة السّياسة, د. عبد الوهاب الكيالي, بيروت المؤسسة العربيَّة للدراسات والنَّشر, مطابع شركة تكتوبرس الحديثة, 1985م.
- نظام الخطاب, ميشيل فوكو, ترجمة الدّكتور محمد سبيلا, دار التّنوير– بيروت, 2007م.
- نظريَّات الشَّخصيَّة, داون شلتر, ترجمة: حمد علي الكربولي والدكتور عبد الرحمن القيسي, مطبعة جامعة بغداد, 1983م.
- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب, تأليف الشّيخ أحمد بن محمد المقرّي التلمساني, حقّقه الدكتور إحسان عبّاس, دار صادر بيروت, 1388هـ, 1968م.
- نقد الشّعر, لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت327هـ), تحقيق وتعليق: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي, دار الكتب العلميّة, بيروت–لبنان, 1985م.

الرسائل والبحوث والمقالات

- أنسنة الأشياء .. حين تتمرّد الألوان في رواية للعراقي عبد الله جدعان, وسن الرنتيسي, (مقالة منشورة)2021م, إرم ستوري.
- جدليَّة المركزي والمهمَّش في رواية الذكريات لـ "بشير مفتي", (رسالة ماجستير), إعداد الطَّالبة آمنة ملولي, إشراف الأستاذ ميلود قيدوم, جامعة 8ماي 1945قالمة, كليَّة الآداب واللُّغات, قسم اللُّغة والأدب العربي, 2021م.
- جماليات النَّسق الضدِّي / شعر ابن زيدون أنموذجا, م. د. صادق جعفر عبد الحسين, كلية الآداب جامعة ذي قار, مجلة القادسية للعلوم الإنسانيَّة, المجلد السادس عشر, العدد3, 2013م. (بحث منشور)

- شعر ابن وهبون المرسي, جمع وتحقيق ودراسة: سمر صبحي أحمد, (رسالة ماجستير) جامعة الموصل, كلية الآداب, 1989م.
- صناعة الجهل وسياسة القطيع, د. نعيمة عبد الجواد, بحث منشور (ميدل إيست أونلاين) 2019م
- القارئ بين مركزيَّة السُّلطة وهامشيَّة الإبداع, قراءة في الخطاب النَّقدي الأدونيسي, غزالة شاقور, مجلة المَخْبَر, أبحاث في اللُّغة والأدب الجزائري, جامعة محمد خيضر, بسكرة, الجزائر, العدد8, 2012م.
- المركز والهامش مفهومه ,جذوره, أنواعه, دليلة البلح, مجلّة قراءات, جامعة سبكرة, العدد4, 2012م.(بحث منشور).
- نحو سيمياء الخطاب السَّلطوي, آلن غولد شليغر, مجلة بيت الحكمة, العدد5, 1987م. (مقالة).
- المهمَّشون كارثة عمرانيَّة بيئيَّة مؤجلة, أ.د. هناء محمد شكري, (بحث منشور)عام 2011م. Higher Technological Institute.
- نظرة على صعود الشّعبويّة, هاني الظليفي, مجلة اتجاهات سياسيّة, المركز الديمقراطي العربي, اتجاهات سياسيّة, العدد الخامس, 2019م. (مقالة)
- نظريّة السّلطة, د. ضياء الرّبيعي, (بحث منشور) ,منشورات الجامعة المستنصرية, 2021م.